جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية – قسم أدب

برنامج الانتساب

مقرر: أدب عباسي ثاني

(٥٠٣٢٩٤)

أ.محمد بن سعيد القرني

أولاً : بيانات المقرر :

رمز المقرر	عدد الساعات	المتطلب السابق
٥٠٢٢٩٤	٣	أدب عباسي أول

خطة المقرر

- الحياة العامة في العصر العباسي الثاني.
- الحياة العلمية والأدبية في العصر العباسي الثاني.
- أبرز شعراء العصر العباسي الثاني ونماذج من شعرهم:
  - الشريف الرضي
  - أبو فراس الحمداني
  - أبو الطيب المتنبي
  - أبو العلاء المعري
- النثر الفني في العصر العباسي الثاني :
  - تطور النثر في العصر العباسي الثاني
  - المقامات
  - أبرز الكتّاب :

أ- ابن العميد

ب-أبو حيان التوحيدي

ج-الصاحب بن عبّاد

د- القاضي الفاضل

هـ-بديع الزمان الهمذاني

و- الحريري

أهداف المقرر :

من المتوقع في نهاية هذا المقرر :

- أنْ يعرفَ الطالبُ خصائصَ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، وأبرز المتغيّرات السياسيّة والأدبية والثقافية.
- أنْ يميّز الطالبُ أبرزَ أعلام الشعر والنثر الفني في العصر العباسي الثاني.
- أنْ يقفَ الطالبُ على أهم القضايا الموضوعيّة والفنية للأدب في العصر العباسي الثاني.
- أنْ يتمكّن الطالبُ من قراءة النصوص الأدبية وتذوقها وتحليلها.
- أنْ يميّز الطالبُ أبرز موضوعات الأدب في العصر العباسي الثاني.
- أنْ يستطيعَ الطالبُ عقد مقارنة بين أوجه الاختلاف للأدب العربي في العصرين العصر العباسي الأول والثاني.
- أنْ يزيد الطالبُ من ثروته اللغوية والأدبية ومخزونه الثقافي، ممّا يؤدي إلى اتساع أفقه وثقافته.

المصادر والمراجع :

١- معجم الأدباء، ياقوت الحموي.
٢- مقامات بديع الزمان الهمذاني.
٣- وفيات الأعيان، ابن خلكان.
٤- أمراء البيان، محمد كرد علي.
٥- الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف.
٦- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي.
٧- يتيمة الدهر، الثعالبي.
٨- تطور الأساليب النثرية، أنيس المقدسي.
٩- المقامة، شوقي ضيف.
١٠- نهاية الأرب في فنون الأدب،النويري.
١١- صبح الأعشى... القلقشندي.
١٢- العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف .

الحياة العامة في العصر العباسي الثاني

استيلاء الترك على مقاليد الحكم :

مرَّ بنا في العصر العباسي الأول كيف هيَّأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريَّة لإمام هاشمي يخلِّص الموالي فُرْسًا وغير فرس من حكم بني أمية، محقِّقًا لهم المساواة المشروعة – بحكم الإسلام – بينهم وبين العرب في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاءً مبرمًا. وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي والخلافة، وحقًّا كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل. ونشب من جَرَّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب. فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقًا، مما أعدَّ لظهور تيار شعوبي بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلُّ عنه عُنْفًا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعًا. وفي أثناء ذلك كانت الثورات مضطرمة في شرقي الدولة، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى، وكان آخرها اندلاعًا ثورة باب الخُرَّمي في آذربيجان التي ظلت نحو عشرين عامًا وكلفت الدولة كثيرًا من الجيوش إلى أن سَحَقَها المعتصم وقواده سَحْقًا.

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر في عنصر جديد يعتمد عليه في حروبه سوى الفرس، فثوراتهم لا تنقطع، وأمانيهم في إحياء مجدهم القومي لا تخمد، واستظهارهم للشعوبية والزندقة لا تهدأ فورته، وهداه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ظلال الرماح، مع حذقه بالرمي يمنة ويسرة ومقبلًا ومدبرًا، وهو الرقيق التركي الذي كثر توافده على بغداد والعراق، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفَرْغانة وأشْروسنة إلى أن بلغت عدَّته ثمانية عشر ألفًا. وكل يوم يزيد، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها. وكان جمهور هذا الرقيق بدوًا جُفاة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها في الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء، مما اضطر المعتصم أن يبني لهم مدينة سامراء شمالي بغداد، وانتقل معهم إليها، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦ للهجرة.

وكان ذلك تحولًا خطيرًا في تاريخ الدولة العباسية، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدينة ولا حضارة، إذ كانوا بدوًا لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس.

وهؤلاء البدو الموغلون في البداوة الذين لم يُعْرَفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عُرفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم، والمعتصم هو الذي هيَّأ لهم ذلك لا بجعلهم جُنْد الخلافة العباسية فحسب، بل أيضًا باتخاذه لهم مدينةً خاصة وجعلها عاصمة الدولة، فأتاح لهم الفرصة كي يُختلى بينهم في المستقبل وبين الخلفاء، فيصبحوا مسخَّرين بأيديهم يصرّفونهم كما يشاءون. وليس ذلك كل ما صنع فقد ولَّى كبيرهم "إشناس" مصر وجعل له الحق في أن يولِّي عليها ولاة من قِبَله، فكان يُدْعَى له فيها على المنابر. وبذلك فتح المعتصم الباب لقواد الترك كي يمسكوا بزمام الشؤون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشؤون العسكرية. وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بِلَّةً إذ ولَّى إشناس من بابه في بغداد إلى آخر أعمال المغرب، جاعلًا له أمر كل هذه البلدان يولِّى عليها من شاء بدون مراجعته، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر. وليس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك، فقد ولَّى على الجانب الشرقي للدولة من كُوَر دجلة حتى خراسان والسند "إيتاخ" حتى إذا توفَّى إشناس سنة ٢٣٠ للهجرة منحه مَرْتبته وأكثر أعماله. ولم يقف تجنِّي الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد، فقد ارتكب خطأ خطيرًا في حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولي عهد بعده للخلافة، وسرعان ما استغلّ قوادُ الترك : إيتاخُ وصاحباه وصيف وبُغا الكبير هذه الفرصةَ حين توفي سنة ٢٣٢ للهجرة، إذ حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك، وعما قليل سيصبح عزلهم – كما سنرى – بأيديهم، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسي الثاني وهو عصر سيادة العنصر التركي بعد إحلاله محل الفرس وما تلاه بعد ذلك من سيادة البويهيين بعد احتلالهم لبغداد عام ٣٣٤هـ وحتى استيلاء السلاجقة على مقاليد الأمور في الخلافة العباسية عام ٤٤٧ هـ وانتهاءً باحتلال التتار عام ٦٥٦هـ والقضاء على الخلافة العباسية في بغداد.

والعصر العباسي الطويل وإن كان ينسب إلى العباسيين إلا أن دولاً كثيرة قد نشأت أثناء هذا العصر. استقل بعضها عن الدولة العباسية استقلالاً تاماً كالدولة الأموية في الأندلس والدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وظل بعضها الآخر يدين بالولاء الشكلي فقط للخليفة العباسي.

ولطول العصر العباسي فقد قسمه المؤرخون إلى عدة عصور، هي:

١- العصر العباسي الأول: ويبدأ من قيام الدولة عام ١٣٢هـ وينتهي بتولي المتوكل الخلافة عام ٢٣٢هـ.

٢- العصر العباسي الثاني: ويبدأ من تولي المتوكل عام ٢٣٢هـ. وينتهي بسيطرة البويهيين عام ٣٣٤هـ.

٣- العصر العباسي الثالث: ويبدأ بسيطرة البويهيين عام ٣٣٤ هـ وينتهي ببدء نفوذ السلاجقة عام ٤٤٧ هـ.

٤- العصر العباسي الرابع: ويبدأ بسيطرة السلاجقة عام ٤٤٧ هـ. وينتهي بسقوط بغداد في يد هولاكو عام ٦٥٦ هـ.

وقد تابع مؤرخو الأدب المؤرخين في هذا التقسيم، ورأى بعضهم أن يقسم العصر العباسي إلى قسمين فقط هما:

- العصر العباسي الأول (١٣٢ هـ . ٣٣٤ هـ).
- العصر العباسي الثاني (٣٣٤ هـ . ٦٥٦ هـ).

وقد مرت الدولة العباسية بعدة أدوار مثل:

الدور الأول: دور القوة المركزية، ويمتد من حكم أبي العباس السفاح، وحتى نهاية حكم المتوكل.(١٣٢-٢٤٧هـ).

الدور الثاني: دور الجندية.ويتمثل في تحول السلطة الحقيقية، إلى يد الوزراء، والقواد، ولم يكن للخليفة أي دور فاعلٍ على الساحة. ويمثل هذا الدور الأتراك الذين سيطروا على الحكم، أمثال: بغا الكبير، وبغا الشرابي ووصيف. حتى أن تولية الخليفة قد أصبح بيد هؤلاء الوزراء، والحجاب. حتى لقد قال أحد الشعراء يصف ذلك :

خليفةٌ في قفص بين وصيف وبُغا
يقول ما قالا له كما يقول الببغـا

الدور الثالث: دور بني بويه (البويهيين). فقد سيطر البويهيون على بلاد فارس والريّ وأصبهان، والجبل. وكانوا قد سيطروا على بغداد في خلافة المستكفي عام ثلاثمئة وأربع وثلاثين(٣٣٤هـ). وسيطروا على الخلفاء، عزلاً وتوليةً، كما فعل الأتراك.

الدور الرابع: دور السلاجقة، وهم من أجناس الترك، ومنهم توزون أحد قوادهم، وقد تآمر ضد الخليفة المتقي، وعزله.

الدور الأخير: سقوط بغداد في يد التتار، عام ست مئةٍ وستةٍ وخمسين(٦٥٦هـ).

وعرف هذا العصر بوجود ظاهرتين سياسيتين :

أ) غزوات الروم

حيث لم يقتصر الأمر على الثورات الداخلية بل ظهرت الغزوات الخارجية من قبل الروم الذين تعودوا أن يغيروا على دمياط بمصر وسمياط بالشام يقتلون وينهبون ثم يفرون إلى البحر.

ب) عصر الدويلات والإمارات المنفصلة عن الخلافة

فالدولة البويهية التى ظهرت فى فارس والعراق كانت بداية لظهور حركات انفصالية واستقلال كل أمير بإمارته وتفتت الدولة إلى ولايات وإمارات بعضها يعترف بالخلافة فى بغداد اعترافاً رسمياً والبعض الآخر ينكرها.

وقد أدى سيادة العنصر التركي في الدولة العباسية إلى فوضى عمت جميع مرافق الدولة بعد المعتصم، فقُتل المتوكلُ على أيديهم، ثم جعلوا يتدخلون في تولية الخلفاء وعزلهم حتى أن بعض الخلفاء لم يدم حكمه عدة أشهر، ولم يحكم الخليفة ابن المعتز إلا يوما واحدا. وارتد ذلك كله على الناس والمجتمع، فعاث الجنود الأتراك في البلاد فساداً، وكثر السلب والنهب وعدم الاستقرار والخوف على الأموال والأنفس والأعراض، ويروى أن أحد الجنود الأتراك اقتحم منزل أحد الأشراف في غياب صاحبه، وذلك للاعتداء على الحريم، فلم يستطع أحد التصدي له، وما كان من أحد الغيورين إلا أن شرع في الأذان، فسمعه الخليفة واستدعاه ليرى فيه رأياً لقدومه على هذه المخالفة، فأخبر الخليفة بأمر الجندي، واعتذر بأنه لم يجد وسيلة للوصول إلى مجلس الخليفة بسبب حجب الجنود الأتراك للناس عن الوصول إلى مجلسه فبادر الخليفة ومن حضر عنده من كبار القادة بإنقاذ هذا البيت الشريف من الأذى، وهذه الصورة تبين مدى ما وصل إليه المجتمع في هذا العصر من الانحطاط.

وأما عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فقد ألمحنا إلى عدم الاستقرار والخوف والاضطراب الذي عم المجتمع ؛ لذا تعطلت الحياة المدنية ولم يستطع الناس ممارسة أعمالهم في أمن وخافوا

على أعراضهم وأموالهم، وكان نتيجة ذلك أن عم الجوع والحرمان قطاعات كبيرة من الناس ، وكان الأثرياء يخافون على أموالهم لذا وجدنا من يُمدح فيبْخَل في العطاء، فيهجوه الشاعر في المقام نفسه، ويُسر الرجلُ بالهجاء أكثر من المدح ؛ لأنه إعلان لعدم قدرته على العطاء، وقد كثر ذلك حتى أصبح مدح الرجل وذمه في مقام واحد اتجاهاً ملحوظاً في دواوين شعراء هذا العصر ، وكان ذلك إعلاناً على تفشي الفقر والبطالة، كما امتلأت الأسواق بالمكدين.

الحياة العلمية والأدبية

على الرغم من ضعف الحياة السياسية والاجتماعية ووصولها إلى هذا المبلغ من السوء فعلى عكس ذلك كانت الحياة العلمية والأدبية مزدهرة فى هذا العصر ويرجع ذلك إلى:

(١) فقد كانت الحياة العلمية زاخرة بكل فنون المعرفة وقد كانت هذه الحركة العلمية الزاهرة امتداداً لحركة علمية بدأت فى العصر العباسى الأول غير أن السمة الأولى للعصر الثانى هى زوال الفارق بين الفكر العربى الخالص والفكر الأجنبى.

(٢) امتزاج الفكر العربى والأجنبى لتشكيل حركة علمية وأدبية متكاملة.

(٣) أصبحت دار الحكمة مكتبة مفتوحة لمختلف أنواع الكتب دون تمييز بين عربى وأجنبى.

(٤) كانت دكاكين الوراقين تقدم للقراء هذه الاتجاهات وتلك الأنواع.

(٥) حلقات المساجد قدمت إسهامات عظيمة فى معظم فروع المعرفة.

مظاهر ازدهار الحياة العلمية والأدبية:

(١) تزود الشعراء والكتاب من هذه الثقافات واتخذوا منها غذاءهم الفنى وإبداعهم الأدبى.

(٢) استمر اللغويون يقدمون للشعراء من الدراسات ما يمكنهم من الوقوف على جمال اللغة وأسرارها.

(٣) أسهمت العلوم الفلسفية فى تكوين عقول الشعراء وتربية خيالهم وذوقهم.

(٤) ازدهر النثر فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ومظهر ذلك بالرغم من ضعف الخطابة.

أ- المواعظ ازدادت تطويراً على أيدى الزهاد والمتصوفة.

ب – ظلت الدواوين تجذب كبار الأدباء ونشطت الرسائل الديوانية نشاطاً كبيراً.

ج – كما نشطت الرسائل الإخوانية والأدبية التى لم تترك موضوعاً للشعر أن تسهم فيه.

سمات الأدب فى العصر العباسى الثانى:

أولا الشعر:

تطور الشعر فى العصر العباسى الثانى ووصل إلى درجة من الرقى والازدهار وذلك للعوامل الآتية:

١- انقسام الدولة العباسية إلى دويلات متنافسة متصارعة.

٢- تنافس الشعراء رغبة فى الحصول على عطايا الحكام.

٣- تعدد مراكز الثقافة {القاهرة-بغداد} وغيرهما.

٤- النضج العقلى والعلمى نتيجة لجهود العلماء فى العلم والترجمة.

وقد تميز الشعر فى هذا العصر بالتجديد فى الموضوعات القديمة وظهور أغراض جديدة.

الأوضاع الحضارية في العصر العباسي الثاني:

رغم المشاكل السياسية العديدة التي شهدتها دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني فإن اللافت للنظر أن هذه الحقبة تُعدّ أخصب عصور التاريخ الإسلامي في عطائها الحضاري المتعدد الجوانب حيث نشطت حركة التأليف في فروع العلم المختلفة نشاطًا ملحوظًا طوال هذه الفترة وقدمت دولة الخلافة المترامية الأطراف علماء أفذاذًا يعترف لهم العالم كله – حتى يومنا هذا – بالفضل والمكانة.

ففي مجال العلوم اللغوية وجدنا أعلامًا نابهين يضيق عنهم الحصر، على أننا لا نستطيع في هذا السياق أن نغفل اسم عالم يُعَدُّ من أعظم علماء اللغة، لا في العصر العباسي الثاني فحسب؛ بل على امتداد العصور الإسلامية كلها، وهو أبو الفتح عثمان بن جنى الذي ولد بالموصل وتوفي ببغداد سنة ٣٩٢هـ = ١٠٠٢م. ومن بين كتبه الذائعة الشهرة الزاخرة بالقيمة في مجال اللغة كتاب الخصائص. وله أيضًا سر صناعة الإعراب، والمذكر والمؤنث، والمقصور والممدود، واللمع وغير ذلك. وقد شرح ابن جنى ديوان المتنبي وكان من المعجبين بشعره. وكان ابن جنى صاحب حس أدبي مرهف، وقد انعكس ذلك على كتاباته العلمية التي اتسم أسلوبها بالجمال الأخَّاذ فضلاً عن الدقة البالغة.

وفي مجال الأدب – إبداعًا وتأليفًا – شهد هذا العصر نهضة تأخذ بالألباب، فقد لمع فيه كوكبة من أعظم شعراء العربية، نذكر منهم – على سبيل المثال لا الحصر– البحتري شاعر الخليفة المتوكل المتوفى سنة ٢٨٤هـ = ٨٩٧م، وقد اشتهر بلغته الموسيقية العذبة ووصفه الرائع؛ وابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٣هـ = ٨٩٦م، وقد اشتهر بقدرته على توليد المعاني وابتكار الصور المعبرة؛ والمتنبي المتوفى سنة 354هـ = ٩٦٥م الذي مازال يحتل مكان السبق بين شعراء العربية قديمًا وحديثًا، وقد خَصَّ سيف الدولة الحمدانى بعيون مدائحه، كما مدح الملك البويهي عضد الدولة، وأمير مصر كافور الإخشيدي وغير هؤلاء من أعيان عصره.

وبجانب الإبداع الأدبي شعرًا ونثرًا تميز العصر العباسي الثاني بظهور الكثير من الموسوعات الأدبية التي تُعَدّ مراجع أساسية لطلاب المعرفة في هذا المجال، ونكتفي هنا بذكر أمثلة لأبرز هذه الموسوعات، وقد لمع في هذا الجانب ابن قتيبة الدينورى أبو محمد عبد الله بن مسلم الذي ولد بالكوفة وتثقف بها وسكن بغداد زمنًا ولكنه نسب إلى الدينور لأنه تولى قضاءها، وقد توفي ابن قتيبة في سنة ٢٧٦هـ = ٨٨٩م في خلافة المعتمد على الله، وقد خلّف لنا ابن قتيبة عددًا من الموسوعات الأدبية المهمة يأتى على رأسها كتاب عيون الأخبار، وكتاب الشعر والشعراء، ومن كتبه الأدبية المهمة أيضًا كتاب أدب الكاتب الذي يتحدث فيه عما يحتاج إليه الأديب من فنون المعرفة ليمارس صنعة الكتابة على الوجه الأمثل.

ويُعَدُّ أبو الفرج الأصفهانى أبرز أصحاب الموسوعات الأدبية في هذا العصر. وقد كان ملازمًا للوزير المشهور أبى محمد حسن بن محمد المُهَلَّبى وزير معز الدولة أحمد بن بويه، وكان المهلبى بصحبة معز الدولة عند انتقاله إلى بغداد، ومما يحفظه التاريخ للمهلبى أنه كان محبا للأدب مقرّبا لأهله، وكان يعرف لذوى القرائح الجيدة أقدارهم ويغدق عليهم من كرمه ورعايته، ومن هنا قرب أبا الفرج الأصفهاني ورعى مكانته. ولاشك أن موسوعة الأغانى للأصفهانى تعد من أهم الموسوعات الأدبية وأكثرها انتشارًا وشمولاً فيما يختص بتاريخ الأدب العربي والثقافة العربية حتى نحو منتصف القرن الرابع الهجري. وقد توفي أبو الفرج الأصفهاني في سنة ٣٥٦هـ = ٩٦٧م.

ويتميز أيضًا بين أصحاب الموسوعات الأدبية أبو منصور الثعالبى وهو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ولد بنيسابور في سنة 350هـ = ٩٦١م، وتوفي في سنة ٤٢٩هـ = ١٠٣٨م، أي أنه عاش حياته كلها في فترة نفوذ البويهيين، وشهدت فترة تفتحه الأدبي خلافة الطائع لله والقادر بالله، وتوفي في خلافة القائم بأمر الله، وكان الثعالبى غزير الإنتاج متنوع الاهتمامات العلمية، ولكن يقف على رأس مؤلفاته جميعًا كتابه الموسوعي الضخم يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها كما يقول ابن خلكان، وهو من أربعة مجلدات صرف فيها جل اهتمامه لشعراء القرن ٤هـ = ١٠م ورتبهم على أوطانهم، فقد تناول في أبواب خاصة شعراء الشام ومصر

والمغرب والموصل والبصرة وبغداد وأصفهان والجبل وفارس والأهواز وجرجان، وتحدث عن الدولة السامانية وشعرائها وعن خوارزم، وتحدث أيضًا عن بنى بويه وشعرائهم وكتابهم، وأسهب في الحديث عن ابن العميد والصاحب بن عباد، كما تحدث عن بلاط سيف الدولة وشعرائه وكتّابه، ولاشك أن يتيمة الدهر تعد إحدى الموسوعات الأدبية الأساسية في تاريخ الأدب العربي، ولا تزال حتى يومنا هذا مصدرًا لا غنى عنه للباحثين في الحياة الأدبية في القرن ٤ هـ = ١٠م.

أبرز شعراء العصر العباسي الثاني ونماذج من شعرهم :

أبو الطيب المتنبيّ

أحمد بن الحسين ٣٠٣-٣٥٤هـ

أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي (من بني جعفي من مذحج من اليمن). ولد بالكوفة سنة (٣٠٣هـ) في حي بني كندة ، فنسب إليه. وهو قدم الشام في صباه – كما نقل ابن خلكان – وجال في أقطاره ، ويبدو أن ذكاءه ومطامحه سوّغا له أن (يتنبأ) على معنى من معاني التنبؤ ، في بادية السماوة طمعاً في المال أو المكانة ، فتبعه خلق من بني كلب ، وغيرهم ، فطلبه أمير حمص وقبض عليه وأودعه السجن ، إلى أن رق له لطول حبسه وكثرة استعطافه ، فاستتابه وأطلقه. ومنذ تلك الحادثة وهو يعرف بلقب المتنبي.

خرج المتنبي إلى جنوبي الشام ، مغادرًا حمص، متنقلاً فيها ومادحاً بعض الأمراء، وأتيح له أن يتصل بأسرة بني حمدان، ولقي سيف الدولة، فتبادلا الإعجاب ، ولحق المتنبي بحلب وحلّ من الأمير بمنزلة رفيعة لم يشاركه فيها شاعر، وعاش في كنفه حياة رعاية وعطاء.

تعرضت العلاقة بينهما لكيد بعض رجال الحاشية، ولم يجد المتنبي من سيف الدولة الحفاظ الذي يرضي كبرياءه فغادر حلب قاصدًا مصر، مدح كافور الأخشيدي طمعاً في الحصول على ولاية أو إمارة، غير أن مطامحه تحطمت ولم ينل ذلك الجاه الذي كان يبذل في بلاط سيف الدولة، فعزم على الفرار بعد أن أذاع قصيدة هجاء شديدة الإيذاء، وغادر البلاد هارباً ، وقصد الكوفة وبغداد يمدح القلة القليلة.

وكانت رحلته الأخيرة إلى "فارس" طلبه ابن العميد فمدحه ، كما مدح عضد الدولة البويهي ، ونال إكرامه وعطاءه ، وعاد إلى العراق فلقيه قريباً من بغداد فاتك الأسدي ، وكان المتنبي مع غلامه وابنه ومعه مال عظيم ، فقاتل معهم حتى قتل وقتلوا ، وكان ذلك سنة (٣٥٤هـ).

يعد أبو الطيب المتنبي من أكبر شعراء العربية على امتداد عصورها ، وكثير من الدارسين يجعلونه رأس الشعراء وسابقهم. أشهر أغراضه المديح والفخر ، ولقد كان المتنبي ذا شخصية جبارة عظيمة ، وكان معتداً بنفسه : شخصه وشاعريته وذكائه ، وكان طموحاً أبيّاً يتمتع بصفات الفارس الشجاع. وأجود شعره ما قاله في سيف الدولة ، فهو قال بعد أن نضجت شاعريته وتمكنها.

نموذج متكامل من شعر المتنبي في مدح سيف الدولة :

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ

وتعظُم في عينِ الصغيرِ صِغارُها ... وتصغُر في عينِ العظيم العظائمُ

يكلف سيف الدولة الجيش همَّه ... وقد عجزت عن الجيوشُ الخضارمُ

ويطلبُ عندَ الناسِ ما عندَ نفسِهِ ... وذلك ما لا تدعيه الضَّراغمُ

يُفدَّى أتم الطير عُمراً سلاَحه ... نسورُ الفلا أحداثُها والقشاعمُ

وما ضرَّها خلْقٌ بَغير مخالبٍ ... وقَدْ خُلقت أسيافُه والقوائمُ

هل الحدثُ الحمراء تعرفُ لونَها ... وتعلمُ أيَّ الساقيين الغمائمُ

سقتها الغمام الغُرُّ قبلَ نزولهِ ... فلما دنا مِنها سقتْها الجماجمُ

بناها فأعلى والقنا يَقْرَع القنا ... وموجُ المنايا حولَها مُتلاطمُ

وكان بِها مثلُ الجنونِ فأصبَحَت ... ومن جُثَثِ القَتلى عليهاَ تمائمُ

طريدُة دهرٍ ساقَهـا فرَدَدْتُهـا ... على الدينِ بالخَطّى والدهرُ راغمُ

تفيتُ الليالي كلَّ شيءٍ أخذْتَه وهنَّ لما يأخذن منكَ غـــوارمُ

إذا كان ما تنويهِ فعلاً مضَارعاً مضى قبل أن تُلقى عليهِ الجوازمُ

***

المعاني الجزئية|:

الخضارم : الكثيفة اللَّجبة ، الضراغم : الأسود، أحداثها والقشاعم : الكبار منها والصغار ، أي إن النسور تفديه بأنفسها فهي في غاية السرور لأنه كفيل بتوفير الطعام لها من جثث القتلى.

القوائم : مقابض السيوف ، الحدث : قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم وغُلب عليها فتحصَّن فيها الروم فأتاهم وقتلهم فتلطَّخت بدمائهم ، ولذلك وصفها بالحمراء ، الغمام : السحاب ، تمائم جمع تميمة وهي تعويذة يتوقَّون بها مسَّ الجنون ، أي كان الروم فيها كالمجانين فقتلهم وعلق جثثهم على حيطانها كما تعلق التمائم.

الخطي: الرماح ، أي كانت هذه القلعة مثل الطريدة تتعقبها حوادث الدهر فرددت هذه الحوادث عنها رغم أنف الدهر.

القيم الجمالية والفنية:

١. بدأ الشاعر قصيدته دون مقدمات ، فقد جاء المطلع مُصرعاً فيه ذلك الترجيح الصوتي (العزم والعزائم، والكرام والمكارم) حيث المفرد والجمع في تكرار يفضي إلى نوع من الإيقاع المجلجل.
٢. اعتمد المقابلة بالإضافة إلى الظاهرة السالفة الذكر في البيت الثاني فكان التقابلُ المعنوي رديف التماثل الصوتي الموحي.
٣. تستمر ظاهرة التماثل مع لون من ألوان التجانس بين الحروف في حشد مقصود لهذه الطاقة الصوتية المتفجرة (تدعيه الضراغم) و (ما ضرها).

٤. الكناية التي تقدم المعنى في خفاء وتوحي به من خصائص هذا النص حيث يشير الشاعر إلى ما يتصف سيف الدولة من شجاعة وإقدام ، ويكنى عن ذلك بسعادة الطيور التي وفر لها طعامها من الجثث.

٥. مظاهر التصنيع واضحة في تلاعبه الألفاظ وتوظيفه اللون واستخدامه للاستعارة ، وتكرار عملية السقيا بألفاظ وأشكال متعددة، قد أتى بصور شخَّص فيها الجماد واستطرد إلى الحديث عنها ، وذلك عند حديثه عن (الحدث الحمراء) وهي القلعة الهامة ويبدو أنها كانت محور المعركة ، وقد استقصى في الحديث عنها العديد من الجوانب ، ومزج بين ما هو حسي وما هو معنوي ببراعة تدل على مهارته ، وقد بنى صورة كلية فيما يقرب من خمسة أبيات استغرقها في الحديث عن القلعة نَّوع خلالها الصور البيانية.

٦. وظف معارفه وخصوصاً في علم النحو للكناية عن عزيمته القوية وأنه إذا همَّ أمضى

الشريف الرضي

يا ظَبيَةَ البانِ تَرعى في خَمائِلِهِ ... لِيَهنَكِ اليَومَ أَنَّ القَلبَ مَرعاكِ

الماءُ عِندَكِ مَبذولٌ لِشارِبِهِ ... وَلَيسَ يُرويكِ إِلّا مَدمَعي

هَبَّت لَنا مِن رِياحِ الغَورِ رائِحَةٌ ... بَعدَ الرُقادِ عَرَفناها بِرَيّاكِ

ثُمَّ اِنثَنَينا إِذا ما هَزَّنا طَرَبٌ ... عَلى الرِحالِ تَعَلَّلنا بِذِكراكِ

وَعدٌ لِعَينَيكِ عِندي ما وَفَيتِ بِهِ ... يا قُربَ مَا كَذَبَتْ عَينيَّ عَيناكِ

أَنتِ النَعيمُ لِقَلبي وَالعَذابُ لَهُ ... فَمَا أَمَرَّكِ في قَلْبي وَأَحلاكِ

عندي رسائل شوق لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

هذه مقطوعة غزلية يصور الشريف الرضي من خلالها مقدار ما يعاني من الشوق وما يكنه قلبه من الحب لتلك التي يتغزل بها ، ويبثها من خلال الكلمة الرقيقة والصور المعبرة نجواه.

وليس من الضروري أن يكون الشريف الرضي متوجها بهذه الأبيات إلى امرأة بعينها ذات واقع تاريخي ، وأنه يعبر عن تجربة مر بها في حياته. وحسبه أن يكون قد عاش هذه التجربة بإحساسه ومشاعره وصورها لنا على نحو ما نجد. وأول ما يصادفنا من أوصاف هذه المرأة ما تتمتع به من الجمال ، هذا الجمال الذي لم يعبر عنه الشريف الرضي صراحة حتى لا يفقده بعضا من جماله ، ويفقدنا شيئا من المتعة النفسية التي نحس بها من خلال استعارة لفظ المرأة. ولم يشأ أن يأتي باللفظ المستعار وحده بل قوى من الزعم بأن هذه المرأة تدخل في جنس الظباء ، وذلك بذكر أمر يتعلق بالظباء وهو الراعي في الخمائل.

والجمال الذي يتحدث عنه الشريف الرضي هو الجمال الحسي الذي غلب على كثير من أوصاف شعرائنا القدامى للمرأة. وهو يظهر على وجه الخصوص في جمال العينين. وكثيرا ما لفت جمال العينين هؤلاء الشعراء، وقد التمسوا له نظيرا وشبيها من بيئتهم الصحراوية فوجدوا هذا الجمال واضحًا في أعين الظباء.

والوصف الثاني الذي يطلقه الشاعر على هذه المرأة أنها كريمة ممتنعة، وأنها من جنس الحرائر اللائي لم يخرجن على التقاليد المتوارثة على الرغم مما كان يزخر به العصر العباسي "عصر الشعراء " من الجواري والإماء والمغنيات. وهذا يدلنا أن الشاعر ظل محافظا على التقاليد العربية في الغزل الذي يعد من السمات الواضحة فيه تمنع المرأة وإباؤها وتدله الشاعر وصبابته، وزيادة كلفه بهذه الحبيبة التي يرضى منها بأقل القليل.

وقد سلك الشريف الرضي نفس الاتجاه مما يدفع إلى القول بأن العصر العباسي ظلت فيه أصوات تتمسك بالتقاليد المتوارثة الاجتماعية والفنية ، ولم يستطع التيار المجدد الذي حمل بشدة على هذه التقاليد أن يمحوها ويعفي على آثارها.

أما الصفة الثالثة التي يعبر عنها الشاعر فتتمثل في إحساسه بأن المرأة تبادله العاطفة، وأنها تحمل له المودة ما يحمل لها. وذلك ما تكشف عنه هذه المقطوعة من خلال تلك الوعود التي يقرأها في عينيها، والشوق الشديد الذي يعاني منه. والرقيب الذي يمنعها ويحول بينه وبين بثها ما يكابد من الشوق.

أبو فراس الحمداني ٣٢٠ – ٣٥٧ هـ

هو أبو الحارث بن أبي علاء ابن عم سيف الدولة ولد بمنبج وربي في حجر النعيم بين أبهة الملك وعزة السلطان فنشا على خلال العظماء شجاعا أبي النفس سليم الطبع كريم الخلق جامعا بين أدبي السيف والقلم .

وكان سيف الدولة معجبًا بمحاسنه مؤثرًا له عل سائر قومه، فاصطنعه لنفسه واصطحبه في غزواته، واستخلفه في أعماله؛ فكان الدرة الفريدة في تاج سيف الدولة، يقود جيوشه في الحرب، ويرأس كتابه في السلم، وكان النصر حليفه في كل مواقعه، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب، حتى خانه الفوز فأسره الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقى نصله في فخذه، فسجنوه بخرشنة، ثم نقلوه إلى القسطنطينية. وتعذرت المفاداة فلبث في الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه، مُمثّلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته الوحيدة، وعوامل الحب لسيف الدولة. ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وحرارة الشوق حتى تنوظر في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه.

صفاته وأخلاقه :

كان أبو فراس كما قدمنا بطلاً أبيًّا سخيًّا معجبًّا بشعره ، وبنفسه ، كثير الفخر بأصله وقومه ، عزوفًا عن الشراب والمجون ، فبرئ شعره من كل ذلك وانطبعت أخلاقه وهو القائل :

لئن خلق الأنام لحسو كأس ومزمار وطنبور وعود

فلم يخلق بنو حمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

شعره :

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوبًا، إلا أن عليه رواء الطبع وسمة الظرف، وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وكان الصاحب بن عباد يقول " بُدئ الشعر بملك وختم بملك " يعني امروء القيس وأبا فراس. وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد، إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، ورومياته أجل وأدل على فضله ، فإن مثله لا يزكو به أن يمدح اميرًا، أو يهجو صغيرًا، أو يذل مصون شعره بين الشراب والمجون.

وقد علمنا كيف نشأ وأين درج. وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب ، فيكون أنم جلالا وأشد روعة. وزعم الثعالبي أن المتنبي كان يشهد له بالتبرير ويتجافى جانبه " فلا ينبري لمباراته و لا يجتري على مجاراته ، إنما لم يمدحه ومدح غيره آل حمدان تهيباً له وإجلالا لا إغفالا " وهو زعم لا يطمئن عليه القلب ، ولا يقول به عرف المتنبي.

<u>أنموذج من شعره:</u>

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية:

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حمامَةٌ ... أَيَا جَارَتَا، هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي
مَعاذَ الهَوَى اما ذُقْتِ طارِقَةَ النَّوَى ... وَلا خَطَرَتْ مِنكِ الهُمُومُ ببالِي
أتَحْمِلُ مَحْزُونَ الفُؤَادِ قَوَادِمٌ ... عَلى غُصُنٍ نَائِي المَسَافَةِ عَالِي
أيَا جَارتَا، ما أنْصَفَ الدّهْرُ بيْننَا ... تَعَالَيْ أُقَاسِمْكِ الهُمُومَ، تَعَالِي
تَعَالَيْ تَرَيْ رُوحاً لَدَيّ ضَعِيفَةً ... تَرَدّدُ في جِسْمٍ يُعَذّبُ بَالي
أيَضْحَكُ مأسُورٌ، وَتَبكي طَلِيقَةٌ ... وَيَسكُتُ مَحزُونٌ، وَيَندبُ سالِي
لَقد كنتُ أوْلَى منكِ بالدّمعِ مُقلَةً ... وَلَكِنّ دَمْعي في الحَوَادِثِ غَالِي

<u>أبو العلاء المعري ٣٦٣ – ٤٤٩ هـ</u>

نشأته وحياته :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن. وُلِد هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرّة من أبوين شريفين. فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضيا بالمعرة. فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب بيسرى عينيه وابيضت اليمنى؛ فنشأ ضريرًا لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوبا معصفرا وهو مريض فكان هذا اللون آخر ماعرفه وآخر ما رأى ولما أدرك سن التعليم أخذ أبوه يلقنه علوم اللسان العربي فتعلمها. وتتلمذ بعد ذلك لنفر

من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم. ولم يُرَ بعد ذلك -فيمن حوله- مَنْ سبقه إلى العلم، أو اختص دونه بفهم، فانثنى إلى بيته وقد ناهز العشرين حتى تفوّق في ذلك وبلغ ما لم يبلغه أحد. وفي سنة ٣٩٢هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام فزار مكتبة طرابلس، وعاج باللاذقية، وكان بها دير للرهبان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد. وبعد أنْ طوّف بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية. وما أنْ أحسّ بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا للقائه ظمأً إلى أدبه. فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والآداب، ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى أحرز منها شوطا بعيدا. ووجد أبو العلاء المعري بيئة صالحة وأرضا زكية لبحث المسائل وغرس المبادئ. فأخذت آراؤه تظهر وتذيع واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام بن الحسن البصري، فأثّر ذلك في عقله وأدبه.

وما كادت علائقه تتوثق بالبغداديين حتى فوجئ على بعد المزار بمن ينعى أمّه، وكان أبوه قد توفى قبلها، فوَجِدَ عليها وجداً شديداً، ونالت منه هذه النازلة. وكان الأمراء والدهماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره، فاضطربت حياته، واختلفت أطواره وأعوزه المشفق والنصير. فنظر إلى العالم بمنظار أسود، وقرّر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا وعاد إلى المعرة سنة ٤٠٠هـ فاعتزل عن الناس إلا عن تلاميذه.

وسمّى نفسه "رهين المحبسين" : العَمَى والمنزل. وظل عاكفاً على التعليم والتأليف عازفاً عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه، قانعاً من الطعام والحلوى بالعدس والتين، ومن المال بثلاثين ديناراً موقوفة عليه في كل عام، راضياً من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردى. وحرّم على نفسه الزواج ضنّاً بنسله عن لؤم الناس وبؤس الحياة. ولم تزل تلك حاله حتى وافته المنيّة سنة ٤٤٩هـ، وقد أوصى أنْ يُكتب على قبره هذا البيت:

هذا جناه أبي عليّ (م) وما جنيت على أحـدْ

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته:

كان أبو العلاء إنسيّ الولادة وحشيّ الغريزة كما وصف نفسه، رقيق القلب، سخياً وفياً، قامعاً لشهواته، سيء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قويّ الذاكرة، سريع الحفظ، وقد رووا عنه في ذلك الأعاجيب، فزعموا أنه كان يحفظ ما يُفهم وما لا يُفهم، وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة، ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم، فقد كان يجيد لعب النّرد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال أنّه مُلْحِد يرى رأي البراهمة. وغيرهم يقول: إنّ شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم يقول: إنّ هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه. وأكثر الناس يرجّح أنّه كان شاكًّا، فتارةً يُثْبت وأخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره.

شعره:

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين: شعر الشباب ويجمعه ديوان "سقط الزند "، وشعر الكهولة وقد وعاه ديوان " اللزوميات ". فأما شعره في الشبيبة: فكثير المبالغة، واضح التقليد بَيّن التكلّف، قلّد فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه، واستخفَّ بقواعد اللغة وجارى شعراء عصره في البديع، بَيْدَ أنّه استعمل الغريب وأكثر في شعره من اصطلاحات العلوم، قال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهجاء، وقد سَلِم له في هذا الطور جملة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر. وأمّا شعره في الكهولة: فقليل المبالغة والتكلف، قد عارض فيه

المتقدمين من العرب، فآثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي، وركّب القوافي الصعبة والتزم ما لا يلزم، وتشدد في اتباع القياس، وأكثر من البديع والجناس، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنّه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنّما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنانٌ ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة: وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب. ويختص دونه بالخيال الدقيق: وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان وهو واحد الشعراء في هذا السبيل.

نثره:

نثر أبي العلاء المعري كشعره، يختلف في كهولته عنه في شبيبته فقد كان كثير المبالغة ومفعماً بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية، ثم حكّم فلسفته في نثره فقلّتْ المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخلُ كتابته من غموض يُعَنِّي القارئ وتطويلٍ يُمِلُّه، فربما كتب الرسالة إلى أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته:

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية فلم يبق إلا "سقط الزند"، و"رسالة الغفران": وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتى، والفردوس المفقود لملتن؛ لأنّه تخيّل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائي بديع. ومن مؤلفاته: عَبَثُ الوليد وهو شرح ديوان البحتري وقد طُبِع في دمشق. وقد فُقِد كتاب الأيكِ والغصون في مائة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والأدب. و" معجز أحمد ": وهو شرح ديوان المتنبي. و" ذكرى حبيب ": وهو شرح ديوان أبي تمام. وغير ذلك كثير.

أنموذج من شعره: من قصيدةٍ له في الرثاء:

صَاحِ ! هذي قبورنا تملأ الرّحْـ ـبَ فأين القبور من عهد عادِ
خففِ الوطء ما أظنّ أديم الـ أرض إلا من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإن بَعُد العهـ ـد هوان الآباء والأجدادِ
سرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العبادِ
رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحم الأضدادِ
فاسأل الفرقدين عمَّنْ أحسّا من قبيلٍ وآنساً من بلادِ
كم أقاما على زوالِ نهارٍ وأنارا لِمُدْلِجٍ في سوادِ

النثر الفني في العصر العباسي الثاني

(تطوّره)

تطوّر النثر العربي في هذا العصر تطورًا خطيرًا، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حَمْلًا لا يزال يروع الباحثين، وكأنما كان في اللغة العربية طاقات مستكنَّة لكي تحمل في يُسْر هذه الثقافات ولا تتأبّى عليها، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفي مقدمتهم ابن المقفع. ثم رَعَت الدولة الترجمة، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمَّى العصر العباسي الأول عصر النقل والترجمة. وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر في كثير مما تُرجم في العصر الماضي، وأحسّ المترجمون في العصر العباسي الثاني عندهم غير قليل من الانحراف في التعبير، وتنبّهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية،

فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه. وكان هذا كَسْبًا للنثر العربي فإن الضَّيْم الذي كان يداخل الترجمات أخذ يزايلها.

(أبرز الكتّاب)

ابن العميد : حياته وثقافته

هو، أبو الفضل محمد بن الحسين، وهو فارسي من مدينة قم١، وقد نشأ في بيت أدب وكتابة، إذ كان أبوه كاتبًا لما كان بين كاكي، ولما قتله السامانيون في بعض مواقعهم معه، أخذوا كاتبه أبا عبد الله الحسين بن محمد، المعروف بكلة، والد صاحب الترجمة أسيرًا معهم، ثم أفرجوا عنه وأكرموه، ورتبوه في الدار السلطانية، وسرعان ما تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر، ولقب الشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان كما لقب بالعميد، ويقول أبو إسحاق الصابي في كتابه التاجي: إن رسائل العميد لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل ابن العميد١، ويظهر أن العميد لم يأخذ ابنه معه إلى بلاط السامانيين، بل تركه في رحال البويهيين، ويقول صاحب اليتيمة: "ولم يزل أبو الفضل في حياة أبيه، وبعد وفاته بالري وكور الجبل، وفارس يتدرج إلى المعالي، ويزداد على الأيام فضلًا، وبراعة حتى بلغ ما بلغ، واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل"، وكان تقلده هذه الوزارة عام ٣٢٨ هـ، وظل يتقلدها إلى وفاته عام ٣٦٠هـ.

ولسنا نعرف شيئًا ذا قيمة عن أساتذة ابن العميد سوى ما عرفناه عن أبيه، ثم ما ذكره صاحب الفهرست، عن أستاذ له يسمى محمد بن علي بن سعيد المعروف باسم سمكة٣، وقد سماه صاحب اليتيمة ابن سمكة٤، ويقول صاحب الفهرست: إن له كتابًا في أخبار العباسيين٥، على كل حال ليس بين أيدينا ما يدل دلالة واضحة على المنابع الثقافية، التي نهل منها ابن العميد، غير أننا

لا نتابعه في آثاره، وفي حياته أثناء وزارته حتى نجده يلم بجميع ضروب الثقافة لعصره، ولعله من أجل ذلك سمي باسم الجاحظ الثاني، وألمع مسكويه قيم دار كتبه في كتابه "تجارب الأمم" إلى ثقافته فقال:

إنه "أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظا للغة والغريب، وتوسعا في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظًا للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام، فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة"، ويقول مسكويه أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعها بحضرته إلا أن يكون مستفيدًا أو قاصدًا قصد التعلم ".

ويروي مسكويه أن أبا الحسن العامري الفيلسوف النيسابوري قصد إليه ، وقرأ عليه عدة كتب مستغلقة من كتب الفلاسفة ، وليس هذا كل ماذكره مسكويه عن ثقافة ابن العميد ، بل إنه يقول أيضا " كان ابن العميد يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم الحيل " الميكانيكا " التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الثقيل ، ومعرفة مركز الأثقال ، واخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل".

وهذا كله يؤكد ان ابن العميد اتاح لنفسه ثقافة واسعة. وكما عمل على تثقيف نفسه عمل أيضا كل ما يستطيع في خدمة ركن الدولة ثم ابنه عضد الدولة ، كان يقود الجيوش بنفسه، واستطاع بمقدرته أن ينشر نفوذ عضد الدولة على بغداد والعراق. وقد خرج في أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردي حسنويه ، ولكنه توفي في الطريق في صفر عام ٣٦٠هـ وقد نيّف عمره على ستين عامًا.

وهذا الوزير المثقف ثقافة واسعة يعد أستاذ عصره في التصنيع ، وقد أقر له ببراعته وفصاحته وامتيازه في كتابته كل من تصدوا لترجمته ، يقول صاحب اليتيمة " هو عين المشرق ولسان الجبل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوجد العصر في الكتابة، وجميع أدوات الرياسة، وآلات الوزارة، والضارب في الآداب بالسهام الفائزة، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية، يدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ، والرئيس، يضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها، إلى براعة المعاني ونفاستها. وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب – وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها – بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد. وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد ". وفي هذه الفقرة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه ابن العميد في عصره من مكانة أدبية ممتازة، وهي مكانة لم يأخذها عن طريق مركزه السياسي وإنما أخذها عن طريق فنه الخالص إن كان ينحو نحوًا بديعيًا من التصنيع والزخرف في كتابه ، وقد مر بنا في غير هذا الموضع أن الكتاب اصطلحوا منذ عصر المقتدر على أن يعملوا السجع في كل ما يكتبون واستمر ذلك من بعدهم، وكان ابن العميد يسجع في كتابته ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده ، وإنما الذي يلفتنا حقا هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه في الصورة التي كانت تنتظره منذ القرن الثاني ، ونقصد صورة السجع من جهة والاحتكام إلى البديع فيما ينشئ الكاتب من جهة اخرى ؛ ومن أجل ذلك قلنا : إن ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، لأنه أول كاتب . فيما نعرف . احتكم إلى السجع في كتابته، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصوير، وقد هيّأه لذلك أنه كان ذا عين تصويريّة " يقول مسكويه : لقد رأيته يتناول في مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته التفاحة وما يجري مجراها ، فيبعث بها ساعة ثم الذي يدحرجها ، وعليها صورة وجه ، وقد خطها بظفره ، لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة ، وفي الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا يأتي له مثلها ". ولا شك في أن هذه النزعة التصويرية فيه كان لها أثر مهم في نثره ، وإذ جعلته نثرا مصورا يهتم صاحبه يصنع الصور والرسوم في كتاباته ، كما جعلته يهتم صاحبه يصنع الصور والرسوم في كتاباته ، كما جعلته يهتم بألوان البديع الأخرى من طباق وجناس وغيرهما وكأنه كان يحس بان هذه الألوان الحسية من لون لوحة الرسام. وانظر إليه يكتب إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة فيسهل رسالته على هذا النمط:

" كتابي وأنا متأرجح بين طمع فيك وإقبال عليك وإعراض عنك فإنك تدل بسابق حرمة وتمت بسالف خدمه أيسرهما يوجب حقا ورعايه ويقتضي محافظه وعناية ثم تشفعها بحديث غُلول ٢ وخيانة وتتبعها بأنف خلاف ومعصية وأدنى ذلك يحبط أعمالك ويمحق ميرعى لك. لا جرم أني وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلا لصدّك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطفاك واجتياحك ، وأنثى ثانية لاستقبالك واصطلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ، ضنّاً بالنعمة عندك ومنافسة في الصنيعة لديك وتأميلا ، وأثني ثانية لا لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويصاغ الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة الى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء. وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك. بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت. فلا عجب ان تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت، وسوء ما آثرت. وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن طمعا في إنابتك، وتحكيما لحسن الظن بك، فلست أعدم فيما أظاهره من أعذار، وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك واستدراجا لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك".

والرسالة كلها تمضي على هذا النحو من السجع والعناية بالبديع، فكلها تحف من السجع وطرف من الجناس والطباق والتصوير، فهي وشي خالص، هي بديع وتطريز وترصيع، إذ ما يزال ابن العميد يدمج وشي السجع في وشي البديع من التوصير، والطباق والجناس، فإذا أساليبه وكأنها ثروة زخرفية هائلة، وهل هناك عبارة في هذه القطعة لم تحل بلون من ألوان البديع، وهو يضع هذه الألوان الرائعة على ألفاظه المسجعة، فإذا هي تختال في هذه المقدرة البديعة من الزخرف والتصنيع، وأكبر الظن أن ابن العميد قد تأثر في صناعته بصناعة السجاد في إقليمه، فهو يعاني في كل لفظة ما يعانيه صانع السجاد في كل خيط، ثم هو بعد ذلك يعني بالوشي الذي تعبر عنه ألفاظه، كما يعني صانع السجاد بالوشي الذي تعبر عنه خيوطه، وعلى هذا النمط تحولت صناعة الكتابة عند ابن العميد إلى تطريز خالص، وهو يحتال على هذا التطريز بحيل كثيرة، ولم لا؟ ألم يتعلم فن

الحيل؟ وإذا فلماذا لا يشفع فنه بكل ما يمكنه من حيل، وقد استطاع أن يصل عن هذه الحيل إلى بدع طريف في سجعه، وذلك أنه كان يعمد إلى تقصير عباراته، وهذا التقصير، أو هذا القصر من أهم الفروق بين سجعه وسجع أصحاب الدواوين من قبله، وقد نظر فرأى نفسه يضطر في أحوال كثيرة إلى عبارات طويلة، فكيف يوفق بين رغبته في القصر، وبين طول هذه العبارات؟ لقد فكر طويلًا في هذه الصعوبة، وسرعان ما هداه تفكيره إلى حيلة طريفة: هي أن يوازن بين كل لفظة، وقرينتها في العبارتين والمتجاورتين، وبذلك يرفع ما قد يحسه القارئ، أو السامع من بعد الزمن في موسيقى الجملتين، وكأني بابن العميد كان يعرف معرفة دقيقة أنه كلما طال الزمن الذي تنتظره الأذن في سماع العبارات المسجوعة نقص التلاؤم الموسيقى. وهو لذلك يعمد كما ترى في أول القطعة إلى السجع القصير، الذي لا يأخذ من قارئه زمنًا طويلًا، ولكن استمر في القراءة تراه يضطر إلى الطول في عباراته، فماذا يصنع إزاء هذا الطول الذي يثقل على أذن سامعه؟ لقد وصل إلى حيلة طريفة من الموازنة بين العبارتين المتجاورتين موازنة تجعل ألفاظهما، وكأنها جميعًا قد نغمت وسجعت على نحو ما نرى في مثل قوله: "فإنك تدلي بسابق حرمة، وتمت بسالفه خدمة"، وقوله: "وأبسط يدًا لاصطلامك واجتياحك، وأثنى ثانية لاستبقائك، واستصلاحك"، وما من ريب في أنها حيلة لطيفة تلك التي احتال بها ابن العميد على مثل هذه العبارات، فإذا هي تصبح وكأنها قصيرة لما تكامل فيها من حلاوة الموسيقى، وما تلك الحلاوة إلا ما يتخذه من المعادلة بين ألفاظ عباراته، معادلات تجعل فيها هذا الائتلاف الموسيقي الطريف، فكل كلمة تتعادل مع قرينة لها في الكلمة الأخرى، وكأنما تطلبها لتعزف معها هذا العزف البديع الذي تمتاز به موسيقى ابن العميد، ولعل في هذا ما يشهد بأن ابن العميد كان يصنع في سجعه إلى أقصى حدود التصنيع التي يستطيعها، وهو يحتال على ذلك بوشي البديع من جهة، كما يحتال عليه بقصر الزمن في سجعه من جهة أخرى، فإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصره بهذه الحيلة من أحداث المعادلات، والموازنات بين ألفاظ العبارتين، حتى لا تخرج الأذن من ألفاظ العبارة الأولى، إلا وتحس براحة صوتية إزاء كل كلمة من كلمات العبارة الثانية؛ لأنها تماثل قرينة لها في العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل.

وهذه هي صورة التصنيع في الكتابة الديوانية عند ابن العميد، فهو يعمد إلى زخرف البديع يوشي به لفظه، وهو دائمًا -كما تصوره يتيمة الثعالبي- يتخذ لفظًا مرصعًا بالسجع، وإنه ليحتال في تحسين سجعه، والإكثار من وشي بديعه حيلًا مختلفة، أما سجعه فكان يحتال عليه بالقصر، فإن كان طويلًا قصره بما مرن عليه من المعادلة بين ألفاظه، حتى لكأنها تتشابك تشابك توقيعات الراقصين، وأما بديعه فإنه كان يكثر منه، وكان ما يزال يحتال على اللفظة حتى يحملها وشي الطباق من جهة، ووشي التصوير، أو الجناس من جهة أخرى.

من أجل هذه الحيل كلها، وما اقترن بها من مهارة، وتفنن كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع في عصره غير مدافع، ولا منازع، ومع ذلك فسنقف عند الصاحب بن عباد تلميذه، وخريجه لنرى هل استطاع أن يضيف من جديد إلى تصنيع أستاذه.

(الصّاحب بن عبّاد)

ويمثّل :

" مدرسة الصّناعة اللفظيّة – التّصنيع "

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد، ولد في إصطخر، وقيل في الطالقان بين قزوين وأبهر سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦هـ، وكان أبوه كاتب ركن الدولة، وعضد الدولة البويهيين، وتوفي في السنة التي توفي فيها ابنه.

وابن عباد هو الوزير الثاني الذي لمع اسمه في بلاط البويهيين، وقد درس على أبيه، وأخذ عنه مذهبه الديني والسياسي، وأخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوي المعروف، وأكمل دراسته ببغداد، ولما عاد إلى وطنه في الري خدم في دواوين أبي الفضل بن العميد، ويظهر أنه أعجب به

فقرَّبه منه، وما لبث أن اختاره ليكون مربيًا لمؤيد الدولة، أخي عضد الدولة، وكانت إقامة مؤيد الدولة بأصبهان، فأقام معه فيها، ولقب بالصاحب لصحبته له صغيرًا.

ولما تقلد شؤون الدولة بعد أخيه عضد الدولة، اتخذ الصاحب وزيرًا له، واستمر على وزارته حتى توفي، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة، وظل في الوزارة حتى وافته منيته عام ٣٨٥ هـ، وقد قضى في الوزارة نحو ثمانية عشر عامًا، ويقال: إنَّ أباه ألف كتابًا نصر فيه الاعتزال، وكان محدثًا روى عنه ابنه وغيره، ويظهر أنّ ابن عبّاد ورث هذه الجوانب في أبيه، فقد نشأ على الاعتزال ومحبة العلم، ويقال: إنه خرج يومًا -وهو وزير- متطلّسًا متحنّكًا بزي أهل العلم لرواية الحديث وإملائه على الناس، وكما كان يولع بالحديث كان يولع باللغة، وقد ألف فيها كتاب " المحيط " في سبع مجلدت، وأيضًا رسالة صغيرة في الكشف عن مساوئ المتنبي.

وما من ريب في أنه لو لم يشغل بالوزارة، ولا الكتابة لكان عالمًا ممتازًا من علماء عصره، ولعله من أجل ذلك كان يشجع على التأليف، كما كان يشجِّع على الشعر، وكان يعجب بالكتابة الرفيعة، ومَدَحَه مُكَاتَبَةً الشريف الرضي، ويقول عنه أبو إسحاق الصابي: "واحتفّ به من نجوم الأرض، وأفراد العصر وأبناء الفضل، وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رقّ المعاني "، وحدث ابن بابك، قال: "سمعت الصاحب يقول: مدحت بمائة ألف قصيدة شعر، عربية وفارسية، وقد أنفقت أموالي على الشعراء والأدباء، والزوار والقصاد"٦. وكان ينافسه في هذه الحركة -على ما يظهر- سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهي، الذي فتح الثعالبي في يتيمته فصلًا لمداحه من الشعراء، وقد أنشأ دارًا للعلم في الكرخ ببغداد، كل ذلك منافسة لإسماعيل بن عباد١، ويقول ابن خلكان عن تلقبه بلقب الصاحب: وهو "أول من لقب بذلك اللقب من الوزراء؛ لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، وذكر الصابي في كتاب التاجي أنه إنما قيل له الصاحب؛ لأنه صحب مؤيد الدولة ابن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به.

وقد كان الصاحب معجبًا بفنه تيّاهًا به، واستغل فيه هذا الجانب خصمه أبو حيان التوحيدي، فثلبه أقبح ثلب، ومن ثَلْبِه له ما يقصّه من أنّ رجلاً من أهل الشام " ورد إليه، فكان فيما استخبره عنه: رسائل من تقرأ عندكم؟ فقال: رسائل ابن عبدٍ كان، قال: ومن؟ قال: رسائل الصابي، وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب، فلم يفطن الرجل، ورآه الصاحب، فقال: تغمز حمارًا لا يحس". ويظهر أنه كان يسجع في حديثه وكلامه، ويقص الرواة طُرَفًا له في ذلك كثيرة. يقول أبو حيان: " وكان كَلَفُه بالسجع في الكلام والقول، عند الجد والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد، قلت لابن المسيّبيّ: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة المُلْكِ، ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل، وكلفة صعبة وتجشم أمور، وركوب أهوال لما كان يخفّ عليه أن يفرِج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها "، وكانوا يزعمون أن سجعةً اضطرته إلى عزل قاضي مدينة قم، فإنّه قال يوما: أيها القاضي بقم، ثم حاول أن يكمل السجع فأعنته ذلك، فقال: قد عزلناك، فقم. ولعل أول ما يلاحظ في سجع الصاحب، أنه يمتاز بالخفة والعذوبة فهو في لفظهِ أكثر صفاء، وأكثر تنغيما من معاصريه من كتاب الدواوين. واقرأ هذه الرسالة القصيرة، التي كتب بها إلى أحد القضاة، وقد وفد عليه في الريّ:

"تحدثت الركاب بسير أروى... إلى بلدٍ حططتُ به خيامي

فكدت أطير من شوقٍ إليها... بقادمةٍ كقادمة الحمامِ

أفحق ما قيل من أمر القادم؟ أم ظنّ كأمانيّ الحالم؟ لا والله! بل هو درك العيان، وإنه ونيل المنى سِيّان، فمرحبًا أيها القاضي براحلتك ورحلتك، بل أهلًا بك وبكافة أهلك، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك، ووجدنا ريح يوسف من رياك، فحث المطي تزل غلتي برؤياك، وتزح علتي بلقياك، ونص على يوم الوصول نجعله عيدًا مشرفًا، ونتخذه موسمًا ومعرفًا، ورد الغلام، أسرع من رجع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر، وأن يترك الصبا في عقال وأسر:

سقى الله داراتٍ مررت بأرضها... فأدنتك نحوي يا زياد بن عامر

أصائل قربٍ أرتجي أن أنالها... بلقياك قد زحزحن كلَّ الهواجرِ ".

أرأيت إلى هذه الرسالة القصيرة، وما فيها من عذوبة اللفظ، وجمال النغم؟ إن الصاحب حقًا أستاذ ماهر من أساتذة فن التصنيع في القرن الرابع، وإنه ليتخذ في هذا الفن جميع المفاتيح الموسيقية التي عثر عليها ابن العميد، فهو:

- يُعْنَى بِقِصَر سجعاته، فإن طالت عادل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر.

- ثم هو يُعنى بألوان البديع يحلِّي بها جيّد أساليبه، وقد كان يعنى عناية خاصة بلوني التصوير والجناس، ولعل ميله إلى الجناس هو الذي جعله يكثر في رقع رسائله من الجناس الناقص، أما ميله إلى التصوير، فقد جعله يبرع في أوصاف الطبيعة، حتى لتتحول جوانب من رسائلة إلى ما يشبه الشعر المنظوم كقوله في رسالة له: " كتابي هذا، وقد أرخى الليل سدوله، وسحب الظالم ذيوله "، وقوله في أخرى يصف مجلس أنس: " قد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها، وضعفت فبقي ذماؤها، وسامتني أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها، وكستها أبرادها، وحضرتني نارنجات ككرات من سفن ذهبت، أو ثديّ أبكارٍ خلقت "، وهذا جانب واضح في تصنيعه، وقد استطاع به أن يطرف قراءه، وسامعيه بضربٍ من الشعر المنثور الذي تمتلئ سجعاته بالرشاقة، والخفة.

وقد كان بهذا التصنيع، وما يندمج فيه من وشي السجع، والترصيع يأخذ مكانته في عصره، وهي مكانة جعلت أصحاب الإمارات الفارسية يحسدون أصحاب الري، والجبل من البويهيين عليه، ويتمنون أن لو صار إليهم، والحق أن الصاحب بن عباد كان أحد أساتذة البلاغة في عصره، وبلغ بمذهب التصنيع مبلغًا عظيمًا من الزخرف، والتنميق، وما يتصل بذلك من الزركشة، والتطريز.

أبو حيان التوحيدي

علي بن محمد بن العباس

٣١٠-٤١٤هـ

هو أبو حيان علي بن محمد العباس التوحيدي. ولد في بغداد نحو سنة (٣١٠هـ) ، في أسرة فقيرة ، وكان أبوه يبيع التوحيد ، وهو نوع من التمر ، فعُرف به. وكفله عمه – بعد وفاة أبويه وشيكاً ، ولكنه كان عليه قاسياً ، وإليه مسيئاً ، وله مبغضاً ، فحصل له نكد الدنيا في سن مبكرة ، وكانت فاتحة الشقاء ، ولم تكن خاتمته.

تلقى أبو حيان النحو على أبي سعيد السيرافي (ت٢٦٧هـ) ، كما أخذ عنه أسرار التصوف ، وأخذ عن علي بن عيسى الرّماني (ت٣٨٤هـ). كما تلقى الفقه الشافعي على أبي حامد المروروّذي (ت٣٦٢هـ) – وكان أبو حيان كثير الملازمة له – وعلى عالم عصره محمد بن علي القفّال الشاشي (ت٣٦٥هـ). ودرس المنطق والفلسفة على يحيى بن عدي (ت٣٦٤هـ) وأبي سليمان المنطقي السجستاني، وغيرهم.

وقد كان التوحيدي قصد إلى الصاحب وإلى ابن العميد في الري منتجعاً فلم يزد الأول على أن كلفه بنسخ الكتب (الوِراقة) ، ولم يحظ من الآخر بطائل. وكان جزاؤهما منه أن ألّف كتابه (أخلاق الوزيرين) أو ما يُعرف بمثالب الوزيرين ، وهو مطبوع.

وفي سنة (٣٧٦هـ) تعرف على أبي الوفاء البوزجاني ، فوصله بوزير صمصام الدولة المعروف بابن العارض ؛ وكان رجلاً كريماً. فنال لديه حظوة ومكانة وتحسنت حاله. وقد جرت له مع الوزير مسامرات جمع منها كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وأهداه إلى أبي الوفاء ، وتوفي سنة (٤١٤هـ).

عاش أبو حيان حياة بؤس وشقاء ، وفقر شديد. وكان يطمح إلى حياة الرغد والسعة ، ويعمل جاهداً لكي يصل إلى ذلك فتخيب مساعيه ، ويكون من ذلك حقد أبي حيان ، وغيظه.

وكانت نفس أبي حيان عنده عظيمة ، رفيعة المنزلة ، كما اقترن هذا باحتقار من يراهم دونه من كبار القوم أو صغارهم. و (مثالب الوزيرين) نموذج لذلك.

ومن نثره قوله :

والعمود الذي عليه المعول، والغاية التي إليها الموئل، في خصالٍ ثلاثٍ هن دعائم العالم، وأركان الحياة، وأمهات الفضائل، وأصول مصالح الخلق في المعاش والمعاد، وهن: الدِّين، والخُلق، والعِلم؛ بهن يعتدل الحال، وينتهي الكمال، وبهن تملك الأزمة، وينال أعز ما تسمو إليه الهمة؛ وبهن تؤمن الغوائل وتحمد العواقب؛ لأن الدين جماع المراشد، والمصالح، والخلق نظام الخيرات والمنافع، والعلم رباط الجميع؛ ولأن الدين بالعلم يصح، والخلق بالعلم يظهر والعلم بالعمل يكمل، فمن سلم دينه من الشك واللحاء، وسوء الظن والمراء وثبت على قاعدة التصديق بمواد اليقين الذي أقرّ به البرهان، وطهّر خُلُقه من دنس الملال، ولجاج الطمع، وهجنة البخل، وكان له من البشر نصيب، ومن الطلاقة حظ، ومن المساهلة موضع، وحظي بالعلم الذي هو حياة الميت، وحلي الحيّ، وكمال الإنسان فقد برّز بكل فضل، وبان بكل شرف ، وخلا عن كلّ غباوةٍ، وبرئَ من كل معابةٍ، وبلغ النّجد الأشرف، وصار إلى الغاية القصوى.

(القاضي الفاضل)

ويُمَثِّل : " مدرسة التَّصَنُّع "

هو عبد الرحيم البيساني، ولد في عسقلان، فهو عسقلاني الأصل كابن الشخباء؛ وولي أبوه قضاء بيسان من قبل الفاطميين، فنسب هو إليها، ولما شب أرسل إلى ديوان الإنشاء في القاهرة ليتخرج فيه، فحضر إلى مصر في عهد الحافظ "٥٢٤-٥٤٤هـ"، وتتلمذ على أشهر الكتاب، وكان

الموفق ابن الخلال حينئذ رئيس ديوان الإنشاء، وكان معه ابن قادوس الأديب المشهور، فلزمهما، ويقول الرواة: إنه لما مثل بين يدي الموفق سأله: ماذا أعددت لفن الكتابة؟ فأجابه: إني أحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة، فأمره أن يحمل شعر الحماسة كله، ثم ما زال به يدربه على الكتابة حتى نبغ فيها، ولكنه لم يستمر مع الموفق، بل ذهب إلى قاضي الإسكندرية المسمى بابن حديد، فكتب عنه كتبًا حبرها تحبيرًا ممتازًا، ويقال إن الوزير: العادل ابن رزيك "٥٥٦-٥٥٨هـ" اطلع على بعضها: فأعجب بها، وطلبه ليسلكه في كتاب ديوانه، فعاد إلى القاهرة، ومكث في ديوان الإنشاء حتى وفد أسد الدين شيركوه، فقربه منه واتخذه كاتبه، ولما توفي استخدمه صلاح الدين. ويظهر أنه أخلص لهذه الأسرة منذ قدومها، فإننا نجد صلاح الدين يتخذه وزيره، ومشيره كما يتخذه كاتبه، وروي عنه أنه قال: " والله ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم، ولكن بقلم القاضي الفاضل "، ويقول ابن فضل الله العمري: " كان القاضي الفاضل هو الدولة الصلاحية كان كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها، والحاكم في كلها، والمجهز لبعوثها، ومع هذا كله كان لا يزال منكدًا مبتلى بضنا قلبه وجسمه، ومرض همه وسقمه... ولهذا كان لا يتكلف مع السلطان سفرًا في كل مرة، وكان العماد ينوب عنه "، وذكر القاضي نفسه علته في أحد خطاباته فقال: " والمملوك في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضي قلبٍ وجسد، ووجع أطراف وعليل كبد "، وكما كان القاضي عليلا كان - على ما يظهر - تَزْوَرّ عنه العين. وتختلف الروايات في الخليفة، الذي جاء القاضي الفاضل في عصره إلى مصر هل هو الحافظ أو هو ابنه الظافر، ورجحنا الأولى؛ لأنها هي التي تتلاءم مع تاريخ القاضي الفاضل، قال الأسعد: "كان القاضي الفاضل دميم الخلقة، وكان له حدبة ظاهرة خلف ظهره وكان يسترها بالطيلسان، حتى لا تظهر للناس". وهذا الرجل العليل القبيح بلغ من فن الكتابة، وتجويده ما لم يبلغه أحد في عصره. يقول العماد الأصبهاني في حقه: " رَبُّ القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما سمع في الأوائل، ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار".

ويقول النويري: "إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت، من بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها، وبين يديه استقرت به نواها، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره، ورافع علم البيان لا محالة، والفاضل بغير إطالة "، وقد أشاد به وبفنه كل من تعرضوا لترجمته، كما أشار كثير منهم –وعلى رأسهم العماد الأصبهاني– إلى أنه صاحب طريقة، ولكن ينبغي أن لا نظن من ذلك أن القاضي الفاضل ابتكر مذهبًا جديدًا، في تاريخ النثر العربي، إنما كل ما هناك أنه قلد أصحاب التصنع فأحسن التقليد، ومن المهم أن نعرف أن الكتاب في الأقاليم المختلفة، منذ القرن السادس أخذوا يغمرون بذوق التصنع في الكثير الأكثر، وقلما تركوا هذا الذوق إلى ذوق التصنيع، وبدأت هذه المرحلة في مصر لا بالقاضي الفاضل، ولكن بابن الشخباء في العصر الفاطمي، والقاضي الفاضل نفسه حين كان يكتب في العصر الفاطمي، كان يكتب بهذا الذوق، وانظر إليه يستهل رسالة كتب بها عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين: " كتابنا – أطال الله بقاء المليك – عن مودةٍ ظاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، ضافية جلباب الشباب، وعوائد عوراف لا يتنكر معروفها، ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها، ومساعي مساعد لا ينقض معروفها، ولا ينقض مسوفها، وسعادة بالخلافة التي عذق به أمرها، وأوضح سرها، وملأ سرائرها وسريرها، وأطلع شمسها وقمرها ".

وهذه الصورة من التعبير، وما يطوى فيها من تشخيص وجناس، وإمعان في هذا الجناس هي الصورة العامة لكتابة القاضي الفاضل؛ ومن يرجع إلى بقية هذه الرسالة في صبح الأعشى، يجد فيها ما اشتهر به من اقتباسه لآي الذكر الحكيم، كما يجد اهتمامه البالغ بالتنظير، بحيث لا نغلو إذا قلنا: إن فن القاضي الفاضل استوى له نهائيًا في العصر الفاطمي، ونحن نعرض على القارئ قطعًا من رسالة تعتبر أشهر ما دبجه – وهي رسالته عن صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد، يزف إليه البشرى بفتح بيت المقدس – حتى يطلع على خصائصه الأدبية في أروع أثر أدبي عني به وبتدبيجه، وهو يستهلها على هذا النمط:

" أدام الله الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظافر الحد بكل جاحد، غني التوفيق عن رأي

كل رائد، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي حكم القوم بعزم لا يمضي إلا بنسل غوي وريش راشد، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع، وأنوارًا إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلًا إلى المراقب، وخيالا إلى المراقد ".

وأنت ترى القاضي الفاضل في هذه القطعة الصغيرة عني – كما عني في مستهل الرسالة العاضدية – بألوان البديع وخاصة لون الجناس، وذهب يطيل في عباراته، حتى يحقق ما يريد من جناس وتنظير وتشخيص، وما من شك في أننا نحس في كل ذلك ذوق أصحاب التصنع، إذ نراه يحاول أن يمرن أسلوبه على أن يحمل أوسع ما يمكن، من جناسات منقوصة، وغير منقوصة، واستمر في الرسالة، فستراه يقول عن صلاح الدين، وفتحه لبيت المقدس إنه: "فاز من بيت المقدس بذكر لا يزال الليل به سميرًا، والنهار به بصيرًا والشرق يهتدي بأنواره، بل إن أبدى نورًا من ذاته هتف به الغرب بأنْ وَارِهْ؛ فإنه نور لا تكنه أغساق السدف، وذكر لا تواريه أوراق الصحف، وكتاب الخادم هذا، وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقًا، وطارت فرقه فرقًا.... وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه، وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب المعبود الواحد، وكان عندهم الثالث، فبيوت الشرك مهدومة، ونيوب الفكر مهتومة، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة".

وواضح أن سمات القاضي الفاضل، التي رأيناها منذ مطلع الرسالة لا تزال هي نفسها، فهو يعمم في جميع جوانبها ميله الشديد إلى التشخيص، كما يعمم ميله إلى ألوان البديع وخاصة لون الجناس، وكان ما يزال يستخدمه في جميع أشكاله من تامة وغير تامة، واستهدفت في أثناء ذلك؛ لأن يوري بين كلمة "بأنواره" وكلمة "بأن واره"، وقاده استهدافه لهذا النوع من الجناس إلى أن يستخدم

التورية كثيرًا في نثره، وقد نسب القدماء إليه استخدامه هذا اللون لأول مرة في تاريخ أدب مصر الإسلامية، ولكن من يقرأ شعر الشريف العقيلي في المغرب، والخريدة، يجد أن هذا اللون عرف في مصر منذ أوائل القرن الخامس، وكل ما يمكن أن يضاف إلى القاضي الفاضل، أنه ربما كان من أوائل من نقلوه من الشعر إلى النثر، ومهما يكن فقد كان القاضي الفاضل، يعنى بأن تضم كتبه عناصر مذهب التصنع، وخاصة عنصر الجناس والتشخيص، وتضمين الشعر ثم عنصر الاقتباس من آي القرآن الكريم، على نحو ما نجد في القطعة السابقة، إذ نظم في عبارته قوله تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}، وكذلك قال: "وبدل الله مكان السيئة الحسنة" وقال: " ن أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة "، وفي هاتين العبارتين ألفاظ من القرآن الكريم. ومع ذلك فعناصره الفنية التي يستخدمها لم نتبينها كلها حتى الآن، فهناك عنصر مهم كان يستخدمه في كتابته، وهو عنصر التصنع لمصطلحات العلوم، واستمر في الرسالة الآنفة فستراه يقول:

"كان يبدل المذابح منائر والكنائس مساجد، ويبوئ بعد أهل الصلبان أهل القرآن للذب عن دين الله مقاعد، ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عساكره بجارٍّ ومجرور، وأن ظفر بكل سور، ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ في الصور". ولا شك أن القارئ قد لاحظ ما نريد أن نشير إليه، وهو أن القاضي الفاضل تصنع هنا لذكر الجار والمجرور، وراعى النظير، فذكر كلمة "تعلق" وكل ذلك ليستتم ما يدل به على براعته في فنه.

ومهما يكن فإن القاضي الفاضل، كان أبلغ كتاب العصر الأيوبي، وقد ظلت المصطلحات، التي يستخدمها في فنه أساسية عند جميع الكتاب المصريين من بعده، حتى ليقول النويري: " إن كل فاضل بعد الفاضل فضلة "، ولم يكن هذا إحساس النويري وحده، بل كان إحساس جميع الكتاب بعده، فقد اتخذوا آثاره مثلهم الأعلى الذي يحذونه ويقلدونه، ومن أجل ذلك كنا لا نخطئ إذا قلنا: إن العصور التي تلته في مصر، كان أصحابها يصوغون دائمًا على مثاله، وينسجون غالبا على منواله.

فن المقامات

المَقامات فن قصصي في الأدب العربي أنشأه بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع الهجري. والمقامة لغةً تعني المجلس، ثم تطوّرت دلالتها لاحقًا فأصبحت تعني الحديث الذي يُلقى على الناس، إما بغرض النصح والإرشاد وإمّا بغرض الثقافة العامة أو التّسوّل. ثم اكتسبت أخيرًا دلالتها الاصطلاحية المعروفة.

والمقامة الفنية أو البديعية، كما أجمع النقاد على تعريفها، أقرب ما تكون لقصة قصيرة مسجوعة بطلها نموذج إنساني مُكد ومتسوّل. وللمقامة راوٍ وبطل، وهي تقوم على حدث طريف، مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لونًا من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية، وضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية.

وعلى الرغم من أن نشأة المقامة مرتبطة ببديع الزمان، إلا أن ريادته لهذا الفن القصصي مازالت موضع خلاف بين الدّارسين. ففريق منهم يذهب إلى أن بديع الزمان لم يبتكر هذا الفن وإنما سبقه إليه كُتّاب آخرون مثل ابن دريد، وابن فارس، والجاحظ وغيرهم. أما الفريق الآخر فيعتقد أن بديع الزمان هو المبتكر الحقيقي لهذا الفن وأنه لم يُسْبق إليه. وربما كان الرأي الأقرب إلى الصواب هو أن بديع الزمان قد استعان بكثير من أشكال الكتابات القصصية التي سبقته وتأثر بمضامينها ليُخرج فن المقامة في شكله النهائي الذي لم يطرأ عليه أي تغيير يُذكر إلى يومنا هذا.

ظلت مقامات بديع الزمان الهمذاني الاثنتان والخمسون أنموذجًا يحتذيه كتّاب المقامات الذين جاءوا من بعده. وأول هؤلاء وأشهرهم الحريري الذي كتب مقاماته المشهورة واعترف بريادة بديع الزمان لهذا الفن. انظر: الحريري. ثم تبعه عدد كبير من الكتّاب القدامى والمُحدثين فكتبوا في هذا الفن، من أبرزهم الزمخشري وجلال الدين السيوطي من المشارقة، والسرقسطي من الأندلسيين. وأما المحدثون فأهمهم اليازجي والمويلحي.

يقوم الإطار الفني للمقامة على شخصيتين رئيسيتين مختلفتين هما: شخصية الراوي وشخصية البطل. فالراوي . الذي ينتمي إلى طبقة اجتماعية متوسطة هو الذي يمهّد . غالبًا . لظهور البطل، يتابعه حيثما حل، وهو في كل هذا يُحْسِن طريقة تقديم البطل الذي يكون عادة شخصية

ساخرة فصيحة ذكية بليغة تنتمي إلى طبقة اجتماعية متدنية، ولديه قدرة عجيبة على التّنكّر، فهو يجيد لبس الأقنعة، فتارةً نراه ناسكًا واعظًا وأخرى نديم كأس، ومرة ثالثة فقيهًا وهكذا. وهو في كل هذه الأحوال يعتمد على الفصاحة والذكاء والحيلة والخداع لنيل هدفه ممن ينخدعون بمظهره.

وبالرغم من أن التّسوّل من أهم موضوعات المقامة، إلا أنها ليست الموضوع الرئيسي لها، وإن كانت صنعة ملازمة للبطل؛ فقد عالجت المقامة موضوعات شتى مثل النقد بأنواعه المختلفة : الأدبي والمذهبي والاجتماعي، وفيها التعليم اللغوي والأسلوبي، والوعظ والإرشاد، والحيلة والأدب والألغاز.

تعتمد المقامة في أسلوبها على قالب السجع، وعلى الإكثار من استخدام المحسّنات البديعية واللفظية بأنواعها المختلفة، وعلى توظيف الغريب كما هو الحال في مقامات الحريري بصفة خاصة.

وحاول بعض الباحثين أن يربطوا بين المقامة وبعض الأجناس الأدبية الحديثة مثل القصة القصيرة والرواية والمسرحية، إلا أن المقامة وإن شَابهت هذه الأجناس في بعض خصائصها، فستظل هذه المشَابهة سطحية .فالمقامة ليست أيًا من هذه الأجناس الثلاثة، إنها جنس قصصي عربي قائم بذاته.

ولفن المقامة أهمية خاصة في مجال الأدب المقارن، فقد قلّدها بعض الكتّاب الفُرس، كما يُعتقد أنها أسهمت في ظهور رواية المُكْدِين التي ظهرت في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي، ثم شاعت في أوروبا لتصبح مقدمة لظهور الرواية النثرية بمفهومها الحديث، نظرًا للتشابه الكبير بين البيكارو بطل رواية المكدين الأسبانية وبين أبي الفتح الإسكندري وأبي زيد السروجي، بطلي مقامات بديع الزمان والحريري.

ومن أهم أعلام فن المقامات في العصر العباسي الثاني بديع الزمان الهمذانى وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الذي سكن هراة من بلاد خراسان وتُوفي بها في سنة ٣٩٨هـ = ١٠٠٨م وكان ذلك في خلافة القادر بالله.

وقد كتب بديع الزمان مقاماته الذائعة الصيت وأبدع فيها، وهو أول من استوى على يده هذا الفن في اللغة العربية. وقد حذا حذوه ووصل بهذا الفن إلى مداه أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري الذي اعترف في صدر مقاماته بأنه جعل مقامات البديع مثالاً له. وقد توفي الحريري في حدود سنة ٥١٦هـ = ١١٢٢م بالبصرة إبان فترة نفوذ السلاجقة، وذلك في خلافة المسترشد بالله.

والملاحظ أن شهرة مقامات الحريري بلغت من الانتشار حدًّا تتضاءل بجانبه شهرة مقامات الرائد الأول بديع الزمان. وتكشف مقامات الحريري عن البراعة الكبيرة لصاحبها في التصرف في اللغة وتطويعها لما يريده من معانٍ وأفكار، وهي إحدى الوسائل المهمة لمن يبحثون عن إثراء ملكاتهم اللغوية.

ومن النماذج المشهورة في فن المقامات المقامة البغدادية لبديع الزمان الهمذاني:

المقامة البغدادية لبديع الزمان الهمذاني

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: اشْتَهَيْتُ الأُزَاذَ، وأَنَا بِبَغْدَاذَ، وَلَيسَ مَعْي عَقْدٌ عَلى نَقْدٍ، فَخَرَجْتُ أَنْتَهِزُ مَحَالَّهُ حَتَّى أَحَلَّنِي الكَرْخَ، فَإِذَا أَنَا بِسَوَادِيٍّ يَسُوقُ بِالجَهْدِ حِمارَهُ، وَيَطَرِّفُ بِالعَقْدِ إِزَارَهُ، فَقُلْتُ : ظَفِرْنَا وَاللهِ بِصَيْدٍ، وَحَيَّاكَ اللهُ أَبَا زَيْدٍ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتَ؟ وَمَتَى وَافَيْتَ؟ وَهَلُمَّ إِلَى البَيْتِ، فَقَالَ السَّوَادِيُّ: لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ، وَلَكِنِّي أَبُو عُبَيْدٍ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، لَعَنَ اللهُ الشَّيطَانَ، وَأَبْعَدَ النِّسْيانَ، أَنْسَانِيكَ طُولُ العَهْدِ، وَانْصَالُ البُعْدِ، فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ ؟ أَشَابٌ كَعَهْدي، أَمْ شَابَ بَعْدِي؟ فَقَالَ: قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِهِ، وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللهُ إِلَى جَنَّتِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلاَ حَوْلَ ولاَ قُوةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيم، وَمَدَدْتُ يَدَ البِدَارِ، إِلي الصِدَارِ، أُرِيدُ تَمْزِيقَهُ، فَقَبَضَ السَّوَادِيُّ عَلى

خَصْرِي بِجِمعْهِ، وَقَالَ: نَشَدْتُكَ اللهَ لا مَزَّقْتَهُ، فَقُلْتُ: هَلُمَّ إِلى البَيْتِ نُصِبْ غَدَاءً، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِ شِواءً، وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وطَعَامُهُ أَطْيَبُ، فَاستَفَزَّتْهُ حُمَةُ القَرَمِ، وَعَطَفَتْهُ عَاطِفَةُ اللَّقَمِ، وطَمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ، ثُمَّ أَتَيْنَا شَوَّاءً يَتَقَاطَرُ شِوَاؤُهُ عَرَقاً، وَتَتَسَايَلُ جُوذَابَاتُهُ مَرَقاً، فَقُلْتُ: افرِزْ لأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذا الشِّواءِ، ثُمَّ زِنْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الحَلْواءِ، واخْتَرْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الأَطْباقِ، وانْضِدْ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرُّقَاقِ، وَرُشَّ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ مَاءِ السُّمَّاقِ، لِيأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيّاً، فَأَنحى الشِّواءُ بِساطُورِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَنُّورِهِ، فَجَعَلَها كَالكحْلِ سَحْقاً، وَكَالطِّحْنِ دَقّا، ثُمَّ جَلسَ وَجَلَسْتُ، ولا يَئِسَ وَلا يَئِسْتُ، حَتَّى اسْتَوفَيْنَا، وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الحَلْوَى: زِنْ لأَبي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِينجِ رِطْلَيْنِ فَهْوَ أَجْرَى فِي الحُلُوقِ، وَأَمْضَى فِي العُرُوقِ، وَلْيَكُنْ لَيْلِّي العُمْرِ، يَوْمِيَّ النَّشْرِ، رَقِيقَ القِشْرِ، كَثِيفِ الحَشْوِ، لُؤْلُؤِيَّ الدُّهْنِ، كَوْكَبِيَّ اللَّوْنِ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ، قَبْلَ المَضْغِ، لِيَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيّاً، قَالَ: فَوَزَنَهُ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعدْتُ، وَجَرَّدَ وَجَرَّدْتُ، حَتَّى اسْتَوْفَيْنَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ مَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَاءٍ يُشَعْشِعُ بِالثَّلْجِ، لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَّةَ، وَيَفْثَأَ هذِهِ اللُّقَمَ الحَارَّةَ، اجْلِسْ يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نأْتِيكَ بِسَقَّاءٍ، يَأْتِيكَ بِشَرْبَةِ ماءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ وَلاَ يَرَانِي أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ، فَلَمَّا أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ، فَاعْتَلَقَ الشَّوَّاءُ بِإِزَارِهِ، وَقَالَ :أَيْنَ ثَمَنُ ما أَكَلْتَ؟ فَقَالَ: أَبُو زَيْدٍ: أَكَلْتُهُ ضَيْفاً، فَلَكَمَهُ لَكْمَةً، وَثَنَّى عَلَيْهِ بِلَطْمَةٍ، ثُمَّ قَالَ الشَّوَّاءُ: هَاكَ، وَمَتَى دَعَوْنَاكَ؟ زِنْ يَا أَخَا القِحَةِ عِشْرِينَ، فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَحُلُّ عُقَدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ: كَمْ قُلْتُ لِذَاكَ القُرَيْدِ، أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ، وَهْوَ يَقُولُ: أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ، فَأَنْشَدْتُ :

اعْمَلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَهْ *** لاَ تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَهْ

وَانْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ *** فَالمَرْءُ يَعْجِزُ لاَ مَحَالَهْ

معاني المفردات:

(١)الأزاد : من أجود أنواع التمر ، (٢) النقد: ما صُك من الذهب والفضة ، (٣) المحال: جمع محل ، أمكنة بيع الأزاد، (٤) الكرخ : في الجانب الغربي من بغداد ، (٥) السوادي: نسبة إلى السواد في العراق حيث تكتسي الأرض بالخضرة الداكنة التي تبدو من بعيد سوداء اللون ، (٦) الإزار : ما يشدُّ في الوسط ، (٧) الصيد : هذا السَّوادي المغفل ،(٨) كعهدي: أي معرفتي به ؛ أي

هل هو باق في شبيبته كما أعرفه أم أصبح شيخاً،(٩) الدمنة : الأثر ، والمقصود هنا القبر ، وقيل المقصود أنه مات من زمن بعيد يكفي لأن تخَّرب داره وينبت الربيع على آثارها ،(١٠) البدار: أي المبادرة ، المقصود وسارعت،(١١) الصدار : قميص صغير يلي الجسد ، أو هو ثوب يُسْبَلُ حتى يغشى الصدر بتمامه ، والمقصود أنه يريد التمزيق جزعاً على والده.

تحليل المقامة

تمثل المقامة البغدادية نمطاً من أنماط السلوك الشائعة في المجتمع العباسي في ذلك القرن (الرابع الهجري)، وتميّز بين شر يحتين اجتماعيتين تتمثلان في طبقة المكْدين الذين يلتمسون الرزق بأيسر السبل عن طريق الحيلة واستغفال الآخرين ، وطبقة أهل السّواد الذين يعيشون على الفطرة، والحقيقة أن النمط السلوكي هو المستهدف في هذا النص وليس نسق التركيب الاجتماعي ، فهي تفح عما آل إليه الأمر بتلك الطبقة من المتأدبين الذين استغلو مهاراتهم اللغوية وملكاتهم العقلية في الإيقاع بالناس واستغفالهم ،ولكن الجانب الاجتماعي الانتقادي لم يغب عن بال البديع وهو ينشيء هذا النص ، أما السخرية التي يمكن أن تكون هدفاً من أهداف الكاتب بقصد الترويح عن القارئ والتخفيف من أعبائه فإنها ليست بمعزل عن روح العصر الذي أثقلته الأدواء الاجتماعية والخلفية ، ولا أظن أن الهدف التعليمي اللغوي كان وارداً إلا بمقدار.

وقد بدت براعة الكاتب واضحة في المنهج البديعي الذي اختطه حيث الأسجاع الخفيفة التي تأتي كما يبدو للوهلة الأولى عفو الخاطر غير متكلفة فتنساب انسياباً تلقائياً رشيقاً خالياً من التعسف والتوعُّر ، وقد تبدي هذا الانسياب في التداعيات المتتالية، ومما يؤكد ذلك أن الكاتب لا يحاول أن يلتزم السجع المطول ، بل كثيراً ما يستجيب لدواعي المعنى فينعتق منإسار السجع لينطلق مترسلاً ولو إلى حين وإن كان هذا قليلاً ولكنه ذو دلالة ،فهو يقول مثلا (فخرجت أنتهز محاله حتى أحلني الكرخ) متحللاً من التزام السجع حين كان ذلك ضروريا ، وأهم ما يميز هذه المقامة خلوها إلى حد كبير من الألفاظ الغريبة والحوشية واستجابتها لدواعي الحدث وطبيعته ، ولهذا نشهد نزوعاً قصصياً واضحاً في هذا النص يتمثّل في:

أولاً – حيوية المشهد الذي يضج بالحوار ،فقد ور لنا السوادي وهو يسوق حماره ويعقد صرة نقوده ، فإذا بنا أمام صورة حية لقروي يهبط إلى المدينة وهو في غفلة عما يخبئه له القدر.

ثانياً- دينامية الحوار وحركيته ومناسبته لتكوين الشخصية العقلي والنفسي ، وتوظيفه بشكل جيد للكشف عن أعماق الشخصيتين الرئيستين في المقامة ، وقد تمثل ذلك في استرسال الراوي عيسى بن هشام والتفافة السريع على الموقف وتغييره لصالحه ، وقصر المقطع الحواري الذي يرد على لسان السوادي وسذاجة منطقه.

ثالثاً- براعة البديع في رسم شخصياته من خلال الحركة فهو قد يلجأ إلى التمثيل والتصوير لا إلى التقرير والإخبار وهذا ما يقرِّبه إلى حد كبير من منهج الكتابة القصصية.

رابعاً- الحبكة القائمة على المفاجأة وعنصر التشويق ، وهي حبكة بسيطة أقرب إلى منهج القصص الشعبي فهي قائمة على التسلسل الخيطي المنتظم ، وعلى طرافة الموقف.

خامساً- أما فيما يختص بالزمان والمكان ،فلم يغفل الكاتب ذكر الوعاء الاجتماعي والبيئي ، فأحداث القصة قد وقعت في بغداد ، وهوية الانتماء بارزة ، فالسوادي ينتمي إلى سواد العراق ، وهو بيئة اجتماعية لها خصائصها النفسية والسلوكية ، ولم يغفل الكاتب البعد النفسي فيها.

سادساً- وحدة الأثر التي هي شرط للقصة القصيرة تفضي بها نهاية القصة التي جاءت كبؤرة مضيئة كشفت عن عناصر الموقف برمته ، وإن سبقتها مقدمات أرهصت بها.

خصائص مقامات البديع:

أولاً- الخصائص المتعلقة بالمضمون:

تناولت مقامات البديع موضوعات متعددة تعالج واقع العصر وترسم صورة لجوانب متعددة منه ، يرى العديد من الباحثين أنها تعبر عن موقف البديع في عصره ، وهو موقف الناقد المتمرد على قيم ذلك العصر السالبة.

ومن أبرز هذه الموضوعات الكدية ، وهي صفة ملازمة لبطل المقامات ، وهذه الصفة تجمع بين الاحتيال والتسوُّل ، ويهدف من ورائها البديع إلى تصوير الدوافع التي حدت بكثير من العلماء إلى ممارسة هذا السلوك بأشكال مختلفة ، من خلال البراعة الأسلوبية أو الحيلة بأنواعها المختلفة كالطروق ليلاً حيث يلجأ أبو الفتح الاسكندري بطل مقامات البديع إلى النزول في الليل لأنه يعلم أن ضيف الليل معزز مكرم عند العرب أو التظاهر بالعمى ، ويتضح ذلك في مقامة البديع المسماة

بـ (المكفوفية)أو امتهان (القرادة) التي يمتهنها من يرقص القرد ويضحك الناس به كما في المقامة القردية ، أو التظاهر بكثرة العيال وسوء الحال كما في المقلمة (الجرجانية).

ومن الموضوعات الأخرى (غير الكدية) النقد الأدبي ، فقد عالج في المقامة هذا الموضوع ، إذ كان صاحب مدرسة أدبية وهي تتمثل في الانتصار لمذهب الصنعة الذي ساد في القرن الرابع الهجري ، واتضح ذلك من خلال نقده للجاحظ في (المقامة الجاحظية) إذ عاب عليه نفوره من التصنيع وجنوحه إلى الاسترسال والسهولة ، وقد نقد الجاحظ أيضاً في مقامته (المضيرية) ، وعاب عليه طريقته في الاستطراد وعمد إلى النقد التعليمي إذ عمد إلى ذكر الآراء النقدية المتداولة وذلك في مقامته القريضية ، ولم يقتصر في ذلك على الأدب بل نقد أساليب المتكلمين ومعتقداتهم كما فعل في المقامة (المارستانيّة) .

ولعل الجانب التعليمي في مقامات البديع من أبرز الجوانب ، وهو يستخدم أساليب مختلفة كالأسئلة المحيِّرة والألغاز كما في المقامة العراقية ، واستخدم الألغاز في (المقامة الشعرية).